لنا كيف ان الصهيونية في نهاية المطاف ، ورغم كل الادعاءات والمظاهر ، هي الحليف الاعز للمعادين للسامية ، وهي ، موضوعيا ، المستفيدة الوحيدة من وجود هذه الظاهرة . وما جهودها المتواصلة للحفاظ عليها وتأجيجها وتطويرها مع مفاهيم العصر الا من قبيل خلق حاجز في وجه العقل الاوروبي ومنعه ، عن طريق الابتزاز الفكري وعن طريق التهديد بتهمة العداء للسامية ، من رؤية حقيقة المسألة اليهودية وايهامه بان كل يهودي هو صهيوني وان أي انتقاد للصهيونية هو العداء للسامية بالذات .

الا أن مثل هذه المغالطات قد فقدت الان الكثير من تأثيرها وفاعليتها كما أن اليسار قد تحرر ، او يكاد ، كليا من هذا الارهاب الفكري وهذا ما يفسر لنا الى حد ما حرص مزراحي ، ومن ورائه منظرو الصهيونية ، على افتعال نوع جديد من العداء المبطن للسامية يوهمون الناس بأنه يوجه بشكل واع او لا واع كل مواقف اليسار المعادي للصهيونية . وقد ظن انه قد وجد هذا النوع الجديد في ما كتبه ماركس نفسه عن المسألة اليهودية بشكل عابر . وقد سبق وبينا تهافت مثل هذا المنطق بسبب ارتكازه على مغالطات خاطئة ومغالطات مقصودة .

وكأن كل هذا لم يكف فاذا بالكاتب يفاجئنا بمقولة جديدة وغريبة مؤداها ان معاداة ماركس للسامية مردها الى عقدة بالذنب بسبب تربيته ونشأته وما الى ذلك من « تحليلات نفسية » لا تقوم على اي اساس علمي او موضوعي ومن غير المفيد التوقف عندها بالرغم من أن الكاتب قد كرس لها قسما كبيرا من كتابه . الا أن ما نستطيع ان نعلق عليه في هذا الصدد هو ان هذا « التحليل النفسي » ليس في الحقيقة سوى وسيلة تضليلية يحاول مزراحي بواسطتها أن « يدرس » الاسباب النفسية العميقة لسلوك ماركس المعادي للسامية وكأن هذا التصرف قد بات امرا مؤكدا وثابتا ومفروغا منه وغير قابل للنقاش !..

ان كل ما جاء في الكتاب حتى الان يمهد الطريق أمام القارىء لكي يقبل بالمقولة الصهيونية التالية:

« ان هناك تناقضا مطلقا بين الاشتراكية ومعاداة السامية . لذلك تنبغي محاربة كل ظاهرة يسارية معادية للسامية بدون هوادة » حتى يتمكن المجتمع غدا من ان يكون اشتراكيا بدون ان يكون معاديا للسامية » . ان الصراع ضد المعاداة اليسارية للسامية يجب ان يكون عنيفا جدا لان هذه الظاهرة خفية وباطنية وغير معلنة على الرغم من انها تظهر احيانا عند بعض المنظرين الماركسيين امثال دوبتشر وكيتشكو (ص ٢٤٢) يجب اذن العمل على تحرير الماركسية من كل معاداة للسامية . ذلك أن « **نهاية معاداة السامية** (وهنا في رأينا الغاية الرئيسية من هذا الكتاب) **تعني ايضا نهاية المعاداة للصهيونية** » (ص ٢٤٨) . ان كل الاتهامات والتركيبات المنطقية الشكلية التي يحتويها هذا الكتاب تجد معناها وتفسيرها في هذه الجملة الاخيرة . وعلى هذا الاساس يتجرأ مزراحي على التأكيد مرة اخرى بأن ماركس لم يكن « ماركسيا » (هكذا) في نظرته الى اليهود لانه لم يكن صهيونيا ! وهذا يعني ان الصهيونية هي الاساس وأن معاداة الصهيونية اصبحت تعني الان معاداة السامية . واذا ما اخذنا بهذا المنطق فاننا سنصل الى يوم تلصق فيه تهمة معاداة السامية حتى باليهود الاسرائيليين ، وبشكل خاص الشرقيين ، الذين قد يثورون يوما على المؤسسة الصهيونية .

ان هذا الكتاب يلخص كل الايديولوجية الصهيونية ازاء المسألة اليهودية وازاء موقف اليسار منها . انه يمثل اخر محاولات الدفاع عن النفس التي تقوم بها الصهيونية امام انفضاح أمرها لدى اليسار العالمي . وهو من هذه الزاوية يمثل اخر ما وصل اليه الفكر الصهيوني في دفاعه عن نفسه وهو ، كما نرى ، فكر بدأ يتخلى عن كل اقنعته « اليسارية » ويكشف عن هويته الحقيقية وعن موقعه المحدد في محاربة الاشتراكية وحركات التحرر وكل الفكر اليهودي التقدمي المعادي له . من هنا اهميته ومغزاه بغض النظر عن قوته الاقناعية المحدودة وتداعي بنيانه الفكري والمنطقي.

ماجد نعمه